الشيخ عبد العزيز البشري

لمناسبة انطواء عامين على وفاته *

للأستاذ منصور جاب الله

طويت صفحة المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى فى غمار الأحداث فلم تفه الأقلام حقه بحسبانه من أدباء العربية المعاصرين الذين خدموا لغة الضاد وتميزوا بجزالة الأسلوب ورصانة العبارة ووثاقة المعنى .

والحق أن المرحوم البشرى كان من حوارى تلك المدرسة الأدبية المحافظة التى نشأت فى أعقاب الثورة العرابية ، ولقد شرح بنفسه مدى تأثره بأسلوب المويلحيين فى الجزء الأول من كتاب «المختار» . ولو قد رجعنا إلى أساليب الكتاب قبل هاتيك الثورة لهالنا مقدار تهافتها وركاكتها وبعدها عن أوضاع اللغة الصحيحة ونحوها وصرفها ، ومن ثم كان لنا أن نزعم أن الثورة العرابية خدمت — عن طريق غير مباشر — اللغة العربية بما أذكت من الكتاب والخطباء .

ولقد نشأ الشيخ البشرى فى بيت علم ونعمة وحفاظ ، فكان أبوه شيخاً للأزهر حقبة ليست بالقصيرة وكان من الأساتذة المتبحرين فى الفقه على المذهب المالكى ، فلم يشأ أن يخالف عن تقاليد أسرته فانخرط فى سلك طلاب الجامع العتيق ، بيد أن النهضة الحديثة كانت أضواؤها تأتلق فى جنبات الأزهر بين طائفة قليلة من الطلاب وطائفة أقل من الأشياخ . وكان أن أصدر المرحوم ابراهيم بك المويلحى صحيفته الأسبوعية «مصباح الشرق» وفيها نقد للشخصيات المصرية فى القرن التاسع عشر وفيها « حديث عيسى بن هشام » لمحمد بك المويلحى بأسلوبه التهكمى الجزل ، وهكذا فتن « البشرى الصغير » بالأدب والأدباء وعزف عن حلقات الدرس فى الأزهر ودأب على مراسلة الصحف الأدبية القائمة حينذاك ، وما كاد يظفر بإجازة العالمية حتى طلبته وزارة المعارف ليكون محرراً فنياً بها .

(*) توفى رحمه الله فى صباح الخميس ٢٥ مارس عام ١٩٤٣

حدثنا رحمه الله فيما حدثنا أنه كان مغرما بالفن من صباه ، وأنه وقد أدرك من المطربين عبده الحمولى ومحمد عثمان ويوسف النيلاوى وعبد الحى حلمى وغيرهم ، كان لايفوته مجلس من مجالسهم الموثقة ، وإذ كان صغيراً والناس ما يبرحون على الحفاظ والإحتشام ، كان ماينفذ من الحدم والأحراس إلا بالرشوة فى أيديهم أو بالزوغان من أعينهم ، وكان يمضى الليل ساهراً جله ما تغمض عيناه غير سويعات قلائل مع مطلع الفجر .

وكان الشيخ البشرى يوافى الصحف بمقالاته التى تشيع فى جوانبها الجزالة والترف اللفظى ، غير أنه كان يطالع كل مقالة على ملأ من إخوانه قبل نشرها ، وأخبرنا رحمه الله أنه كان ينهج فى رسائل « فى المرآة » نهج المويلحى الكبير فى تحليله الشخصيات دون خدش للأعراض أو إسفاف فى الأداء . وذكر أن أحداً من الزعماء إذا عرف أن نوبته قد أقبلت فى « مرآة السياسة الأسبوعية » طوى ليله ساهراً لايغمض له جفن حتى يطالع ما كتبه عنه البشرى !

***

لقيته — رحمه الله — أول مالقيت صيف عام ١٩٢٨ ، وكان يصطاف فى ضاحية « شوتس » الجميلة فى رمل الاسكندرية ، فتعارفنا من يومها وتوثقت بيننا الصداقة فكان لاينهبط الاسكندرية حتى يعلمنى بمقدمه فلا نكاد نفترق طوال مقامه بالثغر البسيم . ولما أراد أن يسوّى من مقالاته المبثوثة فى الصحف كتاباً ، عهد إلىّ فأذكيت جماعة من النساخين فى مكتبة بلدية الاسكندرية ونقلت بيدى طائفة منها مما كنت أحتفظ به من صحف ومجلات . وقد أحجم عليه رحمة الله طويلا عن جمع مقالاته فى كتاب ثم أجاب طلبة أصدقائه على تكره واستثقال ، وأشار إلى ذلك فى مقدمة الجزء الأول من كتاب المختار فقال : « وكثيراً ما استحثنى صُدقائى على أن أسوّى من تلك الرسائل مجموعات أطبعها وأنشرها للناس ، فاذا اعتلوا على عذرى بأن هذا الذى أصنع مما لا أراه يرتقى إلى هذا المكان ، رحت أجاريهم بظاهر من القول ، وفى التعليق على مشيئة الله تعالى من الكذب منتدح »

وكان أسلوب البشرى وسطاً بين الترسل والسجع ، وكانت فواصله بعيدة المدى ، وتتقاصر حينما يمزح أو يداعب ، وتستميح

القارىء فى أن نعرض عليه مثلا من الازدواجات « البشرية » الرائعة . قال رحمه الله على لسان مغرم صب « إننى مارأيت دُرّةً قط إلاّ حسبت أنها انتزعت من ثغرها ، ولا أبصرت مرآة قط إلا ظننت أنها استعيرت من صدرها ، ولا طالعت وردة ناضرة إلا خلتُ أنها قطفت من خدّها ، ولا تمثّل لى غصن من البان إلا أحضر لى صورة قدها ، ولا سطع لى عبير إلا شعرت أنه من شذاها ، ولا فصحنى نور إلا قدّرت أنه من إشراق محيّاها ، ولا سمعت شدْو القُمرى إلا سمعتها تتكلم وتلغو ، ولا طاف بى النسيم إلا تمثلتها تلعب وتلهو ، ولا طلعت الشمس إلا رأيتها فيها ، ولا استتم البدر إلا خلتها تعلو على الدنيا كبراً وتيها . وإنى لأرفع بصرى إلى السماء فأرى لها هودجاً فى موكب السحاب ، وأخرج إلى الفلاة فإذا هى يترقرق بها السراب ، فهى سعدى وهى سُعدى ، وهى نعيمى وهى بؤسى ، وهى لذتى وألمى ، وهى صحتى وسقمى ، وهى نعمتى وبلائى ، وهى حياتى وفنائى »[1]

وقال البشرى الشعر فى صباه ، وكان يرسله فى جريدة « الظاهر » هجواً فى المرحوم الشيخ على يوسف صاحب المؤيد تشيّعاً منه للمرحومين مصطفى كامل ومحمد المويلحى ، ثم أجمل زمانا ، فلما توفى صديقه المرحوم الدكتور حلمى النشاوى فى ريق الشباب ومشرق الفتوة جرى لسانه بالشعر مرة أخرى ونشرت له « الرسالة » قصيدة باكية فى ربيع عام ١٩٣٤ ، وكانت آخر قصيدة له فيما أعلم ؛ فلم يقل بعدها شعراً .

والشيخ البشرى . كما عرفه أصحابه ، حسن العشرة ، بارع الحديث ، سريع الخاطر ، يجيد الفاكهة ، ويستضحك بنوادره الباكى الحزين . ومن ثم اتخذه كثير من عظماء المصريين صاحباً وخدينا ، وقبلوا وساطاته وشفاعاته فى الناس ، ولكنه كان إلى ذلك عصبى المزاج يثور لأقل بادرة ، وفى سبيل ذلك يهدر الصداقة القديمة ، ومن أجل هذا الغمز كان كثير من أصدقائه يتقونه ويتحاشونه ، ويخافون سقطات لسانه .

زرته فى مطالع عام ١٩٣٤ ، وكان يسكن بضاحية الزيتون ، فأخذ بيدى وأدخلنى قاعة الاستقبال وأشار بيده إلى صور معلقة إلى الجدار قائلا « هؤلاء الثلاثة هم الذين أجلّهم وأحترمهم من بين المصريين جميعاً » وتفرست فى الصور فاذا هى لعظماء ثلاثة : المرحوم أحمد شوقى بك ، والدكتور على ابراهيم باشا ، والدكتور عبد الحميد بدوى باشا . وقد رجعت الآن إلى كتابه « المختار » فألفيته يهديه إلى صديقه المرحوم محمد راغب عطية بك الوزير السابق بهذه العبارة « أهدى عصارة ذهنى مدة الحياة ، إلى من أهدت مودته إلى أحلى ذكريات الحياة » .

***

كان الشيخ عبدالعزيز البشرى أديبا ملء إهابه ، ولو قد قصر عمله على الأدب والكتابة لجاء فيهما بالعجب العجاب ، ولكن أريد له أن يكون موظفا ، وأريد له أن يكون رئيساً إدارياً ، وليس ينتقص من قدر الأديب الصحيح سوى الوظائف التى لاتوائم طبائعه ، ولا تتفق مع سليقته ، ومن ثم بدأ عجز أديبنا العظيم واضحاً حين جىء به وكيلا لإدارة المطبوعات ، ثم مراقباً إداريا لمجمع اللغة العربية ، وقد توفى وهو يشغل المنصب الأخير ، وكان لابد مما ليس منه بد ، وترك رحمه الله الحبل للغارب لبعض صغار الموظفين ، فأحفظ ذلك سائرهم ، وكان فيهم أدباء معروفون ، وكان فيهم أصدقاء قدماء له . فقام ذلك دليلا على أن الأديب الممتاز ينبغى ألا يشغل عن الأدب بما هو دون الأدب .

***

وبعد ، فلقد غدا عبد العزيز البشرى فى المنسيين ، لا بل لقد أصبح وأمسى فى المذكورين . وبين أيدينا الساعة كتاب « المرآة » وهو أول كتاب من نوعه فى الأدب العربى ، يجد فيه ويمرح ، ثم لايقول إلا حقا ، وبين أيدينا جزءان من كتاب « المختار » وقد جمع فيه أروع وأجل ماأرسله فى الصحف الدائرة ، ثم هو قد ألف كتاب « التربية الوطنية » لتلاميذ المدارس وشارك فى وضع « المجمل فى الأدب العربى » لطلبة المدارس الثانوية . ومثل هذه الآثار مجتمعة ومتفرقة لاينسى صاحبها ، ولسوف تمضى سنون وسنون وهذا البلد وبلدان العروبة قفر من بيان البشرى الساحر وملحه الطريفة ، وشخصيته الفذة . تداركه الله برحمته ، وجزاه عن لغة الضاد أحسن الجزاء .

(الرمل) منصور جاب الله

(١) المختار ج ١ ص ١٥٩ و ١٦٠